

# مفهوم الثقافة

- مقدمة.
- نشأة الثقافة وتطورها.
- أ - الجبريون الطبيعيون.
- ب - التفوق العنصرى.
- ج - الاقتصاد.
- د - عوامل ميتافيزيقية أو فلسفية أو نفسية.
- الجذور التاريخية للفكرة والمفهوم.
- مفهوم الثقافة.
- أولاً : فى اللغة.
- ثانياً : مفهوماً لدى المفكرين.
- أ - تعريفات تاريخية.
- ب - تعريفات تطورية.
- ج - تعريفات بنيوية.
- د - تعريفات وصفية.
- هـ - تعريفات شمولية.
- و - تعريفات سيكولوجية.
- ز - تعريفات معيارية.
- تعليق عام على تعريفات الثقافة.
- الثقافة والحضارة والمدنية والعمران.

### الأهداف التعليمية للفصل:

تستطيع بعد قراءتك هذا الفصل أن تخرج بمجموعة من الأهداف منها :

- أن تفرق بين آراء المفكرين حول نشأة الثقافة وتطورها .
- أن تعرف الجذور التاريخية لمفهوم الثقافة.
- أن تفرق بين الآراء المختلفة حول مفهوم الثقافة.
- أن تدرك الفرق بين مفاهيم الثقافة والحضارة والمدنية.

### مقدمة:

لكل مجتمع ثقافته الخاصة التي تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى. والثقافة تمثل حصيلة كل ما تعلمه أفراد مجتمع معين، وبذلك تتضمن نمط معيشتهم وأساليبهم الفكرية ومعارفهم ومعتقداتهم ومشاعرهم واتجاهاتهم وقيمهم والأساليب السلوكية التي يستخدمونها في تفاعلهم مع بعضهم البعض، وكل ما يستخدمه أفراد هذا المجتمع من آلات وأدوات في إشباع حاجاتهم وتكيفهم مع بيئتهم الاجتماعية الطبيعية وحسن استغلال بيئتهم الطبيعية والسيطرة عليها.

ويشكل أفراد المجتمع نمط معيشتهم ويعبرون عنها بأفعالهم وإنتاجهم وخبراتهم ومعارفهم وفنونهم. وبذلك يعتبرون وسطاء نشطين *Active Agents* في صنع وملاءمة وبناء أنماط معيشتهم، فكل ما تتضمنه الثقافة من معارف وخبرات وقيم واتجاهات وفنون وأنماط سلوكية، وكل ما هو من إنتاج وصنع الإنسان، يسهل حياة الأفراد في المجتمع، ويعمل على تكيفهم وإشباعهم لحاجاتهم بالطرق المتعارف عليها ثقافياً، مما يساعد على الضبط الاجتماعي واستقرار المجتمع.

ويكتسب الجيل الجديد ثقافة مجتمعه ولكنه قد يضيف إليها أو يحذف منها لتتماشى مع حاجاته ومتطلبات مجتمعه، مما ينتج عنه زيادة في الكم والكيف. ويؤدي التراكم الثقافي على مر العصور إلى سرعة التعلم وزيادة الخبرة الإنسانية نتيجة للاستفادة من معارف وخبرات الأجيال السابقة. وبذلك تتغير الثقافة من جيل إلى جيل وإن كان هذا التغير يحدث بواسطة الأفراد أنفسهم.

وهذا معناه أن الإطار العام الذي يعيش فيه الفرد لا يتجاوز التراث الذي تراكم على مر الأجيال - هذا التراث من اختراعات ومكتشفات وأعمال وعادات وتقاليد وقيم مارسها الإنسان على مدار التاريخ - هذا التراث هو ما يمكن وصفه بالثقافة والأفكار والأنماط السلوكية التي يستخدمها شعب ما في مكان ما.

\* هذا الفصل من إعداد وتأليف د. هاني يونس

## نشأة الثقافة وتطورها<sup>(1)</sup> :

إن تاريخ الإنسان الثقافى هو مثل تاريخه البيولوجى قصة تلاق، وقصة تواصل وتجمع. وإذا كان من المحال أن نتصور تكاثر الجنس البشرى وتجدد نوعه واستمراره عضوياً بدون هذا التواصل والتجمع، فإنه من المستحيل أن نتصور تفتح قدراته الإنسانية، ونمو خبراته الاجتماعية بغير هذه السبيل. فعن طريق التقاء الإنسان بأخيه الإنسان ظهرت الأشكال المختلفة للتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما ظهرت اللغات والديانات والمخترعات التكنولوجية.

والذى نهدف إليه من هذا هو أن الاجتماع الإنسانى، اجتماع الناس وتواصلهم وتفاعلهم اجتماعياً، هو الأساس الجوهرى فى نشأة الثقافة وفى نموها وتطورها وضرورتها. وهذه الثقافة هى ميزة الجنس البشرى، والتى يكون بها الإنسان ما هو، ويكون بها المجتمع البشرى ما هو.

ولقد لجأ علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى تفسير نشأة الثقافة وتطورها بعامل واحد من العوامل التالية. إلا أن القول بعامل واحد فقط فى نشأة الثقافة لا يتفق ووجهة النظر الاجتماعية المتكاملة، ومن هذه التفسيرات :

### أ- الجبريون الطبيعيون:

وينقسمون إلى قسمين : الأول : الجبريون المكانيون أو الاجتماعيون الجغرافيون . والثانى الجبريون الزمانيون أو المؤمنون بالجبرية الزمانية كاجتماعيين الحيويين أو التطوريين .

**فالجبرية المكانية :** ومعناها أن الإنسان يخضع للظروف الطبيعية، التى تجعله يستجيب لها، ولكن الإنسان قضى عليها أو كاد يفعل، على أن قصة الثقافة هى إلى حد كبير قصة صراع ضد هذه الجبرية، فقد تمرد الإنسان على البيئة، وتغلب عليها، فمهد الأرض، واستنبت الماء واستنبت الزرع وهزم الأبعاد المكانية والزمانية، فاجتث الغابات وأنار الظلمات وأستأنس الحيوان وسيطر على الميكروبات وابتكر الشئ الكثير . كل ذلك وغيره مظهر من مظاهر سيطرته على البيئة الطبيعية .

**أما الجبرية الزمانية :** التى بشر بها التطوريون المحدثون والقدامى، فقد تأثروا باكتشافات دارون الحيوية وراحوا يطبقون ذلك المنهج على الدراسات الاجتماعية فما أفلحوا . ذلك لأن افتراض أن التطور الثقافى يبدأ من البسيط ويسير إلى المعقد كما يحدث فى عالم الحيوان، لا يفسر لنا ما نشاهده فى المجتمعات، وهو يدل على أن عكس هذا حدث ويحدث فى كثير من جوانب الثقافة، كالتقوس الدينية، واللغات البعيدة الانتشار، والنظام العائلى .

(1) لمزيد من التفصيل راجع:

- أ. ك. أوثاواي: التربية والمجتمع، ترجمة: وهيب سمعان وآخرون، القاهرة: دار الطباعة الحديثة، 1970.
- حسن الفقى: الثقافة والتربية، القاهرة، دار المعارف. 1977.
- حسن الساعاتي، التصنيع والعمران، القاهرة، دار المعرفة، 1959.
- محمد لبيب النجيجي: الأسس الاجتماعية للتربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968.
- منير المرسي سرحان: فى اجتماعيات التربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1973.

**ب- التفوق العنصرى:**

يرى أتباع هذا الرأى أن الثقافات الكبرى العظيمة اختص بصنعها عنصر معين من الجنس البشرى هم الآريون، وأن عناصر أخرى من شأنها أن تنتفع بتلك الثقافات وتحافظ عليها، وهى الجنس الأبيض عامة، وأن هناك عناصر أخرى هم الملونون، سوداً وصبغاً وسمراً، وشأنهم فى هذه الحياة القضاء على الثقافات العظيمة التى صنعها قوم، وانتفع بها آخرون. وأن صيانة الثقافة واجب مقدس، وهذا الواجب يفرض سيادة العنصر الذى يصنع الحضارة وإخضاع العنصر الذى يفهمها ويصونها، وإفناء العنصر الذى يفنيها ويهدمها، وهذا هو منطق النظرية العنصرية، وهذه النظرية تقوم على أساس أن الثقافة الغربية هى الثقافة التى يجب أن تسيطر على كل البلدان، وأنها المثال الذى يجب أن يحتذى.

**ج- الاقتصاد :**

يرى أتباع هذا الرأى أن الاقتصاد وما ينشئه من علاقات، وما يدفع إليه من نشاط، هو وحده سبب نشأة الثقافة وتطورها. وإن كل ما كان ويكون هو فى خدمة هذا النشاط، وصورة من صورة.

**د- عوامل ميتافيزيقية أو فلسفية أو نفسية :**

ويرى أتباع هذا الرأى أن الثقافة تنشأ نتيجة لعوامل ميتافيزيقية أو فلسفية أو نفسية. وهذا الرأى أيضاً لا يستطيع تفسير الظاهرة تفسيراً مقنعاً لأنها جميعاً من اختراع الإنسان وتصويراته واكتشافاته.

**وخلص القول،** أنه من العسير الركون إلى تفسير واحد بإسناد الثقافة ونشأتها إلى عامل واحد مهما كان ذلك العامل أساسياً وجوهرياً، بل تنشأ عن طريق الأسباب المتعددة المتكاملة، فالثقافة كالتوليد البشرى، أبواه الإنسان والطبيعة معاً. فليست الطبيعة وحدها هى أمه فلا جبرية مكانية أو زمانية، وليس الإنسان وحده هو أباه، فلا عنصرية ولا سببية فردية متصلة بنشاطه الاقتصادي أو الفكرى، وإنما الثقافة هى الإنسان والطبيعة وما نتج عنهما، ذلك أن الثقافة ظاهرة إنسانية، وهناك ارتباط بين كل مجالات النشاط الإنسانى، ورد الظاهرة إلى واحد من هذه العوامل يوقعنا فى التفسيرات الأحادية، ولا يمكن ردها إلى عامل واحد فقط، وهذه النظرة أساس كل التفكير العنصرى فى التاريخ.

**الجزور التاريخية للفكرة والمفهوم :**

إن الفكرة العامة حول معنى الثقافة ليست بالجديدة، فقد وجدت بأشكال مختلفة فى الإنجيل ولدى هومر وهيبوكراتيس وهيرودوتس. إلخ وتبلورت فى الاهتمام بأساليب الحياة المميزة للشعوب المختلفة فنجد أن "بويثيس" Boethius يقول مشيراً إلى مبدأ نسبية الثقافة Cultural relativity واختلاف أساليب معيشة الشعوب: "إن عرف الأمم وقوانينها تختلف اختلافاً بيناً لدرجة أن السلوك الذى تعده الأمم جديراً للثناء تعده أمم أخرى مستحقاً للعقاب".

أما "ديكارت" Descartes فقد أوضح الفكرة بشكل أكثر تفصيلاً في كتابه "مقال في المنهج" Discourse on Method:

"من خلال أسفاري، تيقنت من أن كل هؤلاء الذين لهم اتجاهات وأساليب تختلف اختلافاً كبيراً عن اتجاهاتي وأساليبي ليسوا من أجل ذلك الاختلاف برابرة أو متوحشين بل أن لهم منطقهم الذي قد يتفوق على منطقي. إن الشخص نفسه الذي ينشأ منذ نعومة أظفاره بين الفرنسيين أو الألمان سوف يكون مختلفاً تماماً إذا ما نشأ هو عينه بين اليابانيين أو بين أكلى لحوم البشر".

كما أن تلك الفكرة وجدت في كتابات "باسكال" (Pascal) ومونتسكيو (Montesquieu) وفولتير (Voltaire) بدرجات مختلفة من الوضوح.

ويذكر "كروبير" (Krober) وكلاكون (Kluckhohn) أن "سبنسر" قد سبق الرواد الأنثروبولوجيين في استخدام كلمة الثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي، وحيث يذكر أن أنه يعرفها بأنها "مجملة الإنجاز الإنساني" The sum total of human achievement.

أما كلمة الثقافة بمعناها الاصطلاحي الفنى الأنثروبولوجي الحديث، فقد أرسيت دعائمها (بالإنجليزية) بفضل "تايلور" taylor سنة 1871 الذي اقتبس هذه الكلمة من الألمانية بعد بعض التردد بينها وبين كلمة حضارة Civilization، لكن هذه الكلمة لم تظهر في أى قاموس إنجليزي أو أمريكي منذ ذلك التاريخ إلا بعد أكثر من خمسين سنة.

ويصور فريق تحرير موسوعة العلوم الاجتماعية في مجلدها الأول فى مقال لهم عن "الحرب" وإعادة التوجيه War and Reorientation المكانة التي وصل إليها مفهوم الثقافة حوالى سنة 1930 فيقولون :

"إن النظرية الأساسية التي احتلت مكان الصدارة فى العلوم الاجتماعية فى العقود الأولى من القرن العشرين هى نظرية الثقافة بحيث يمكن أن نقول : إن هذا القرن قد شهد فى نصفه الأول تمجيد الثقافة فقد بدا هذا المفهوم أكثر المفاهيم أهمية فى كتابات العلماء الاجتماعيين فى ذلك الوقت وبخاصة الأنثروبولوجيين وبدأ هؤلاء يتحدثون عن قطاعات وتفرعات لمفهوم الثقافة، مما يدل على ثراء هذا المفهوم، وظهر الاهتمام بمصطلحات السمات الثقافية Culture traits والمناطق الثقافية Culture areas والمراكز الثقافية Culture centers والأنماط الثقافية Culture types والنماذج الثقافية Culture pat-terns والهجرات الثقافية culture migrations والالتقاء الثقافى Culture convergence والانتشار الثقافى culture diffusion، كما انصب اهتمام العلماء على دراسة ميلاد الثقافة ونموها وتزاوجها وخصوبتها ونضجها وأفولها .

وقد دخل مفهوم الثقافة عناصر أخرى جديدة، ويرى أوبلر Opler أن نظرية الثقافة قد أصبحت تحوى كثيراً من أساليب العلاج النفسى Psychiatric Therapy والاهتمام بمشكلات الأقليات كما أصبحت تضم اتجاهات علمية تنمى إلى مجال العلاقات الدولية.

وجدير بالذكر أن نفراً قليلاً من السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين قد عارضوا بشكل ضمني أحياناً وظاهراً أحياناً أخرى استخدام مفهوم الثقافة على أساس أنه مفهوم غامض وغير محدد نذكر منهم فون فيزا السوسيولوجي الألماني Leopold von wiese وراي كليف براون Radcliffe -Brown الأنثروبولوجي الإنجليزي الذي يفضل استخدام اصطلاح البناء الاجتماعي Social structure.

### مفهوم الثقافة :

سنتناول الثقافة من حيث مفهومها في اللغة أولاً ثم مفهومها لدى المفكرين والمربين .

أولاً : مفهومها في اللغة : سنعرض لمادة "ثقف" (1).

"ثقف الشيء ثقفاً وثقافاً وثقوفه : حذقه . ورجل ثقف وثقف حاذق فهم .

وأبتعوه فقالوا : ثقف لقف . وقال أبو زياد : رجل ثقف لقف رامٍ راوٍ .

الحياتي : رجل ثقف لقف وثقف لقف، وثقيف لقيف بين الثقافة واللقافة .

ابن السكيت : رجل ثقف لقف، إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به، ويقال ثقف الشيء وهو سرعة

التعلم .

ابن دريد : ثقفت الشيء حذقته، وثقفته إذا ظفرت به، قال الله تعالى : "فإما تتقفهم في الحرب" .

وثقف الرجل ثقافة أى صار حاذقاً خفيفاً مثل ضخم فهو ضخم، ومنه المثاقفة .

وثقف أيضاً ثقفاً مثل تعب تعباً، أى صار حاذقاً خفيفاً فهو ثقف وثقف مثل حذر وحذر وندس

وندى . ففي حديث الهجرة : فهو غلام لحن ثقف، أى ذو فطنة وذكاء . والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج

إليه .

وفي حديث أم حكيم بنت عبد المطلب : إني حصان فما أكلم وثقاف فما أعلم .

وثقف الخل ثقافة وثقف بالتشديد، حذق وحمض جداً، مثل بصل حريف . قال : وليس بحسن، وثقف

الرجل ظفر به، وثقفنا فلاناً فى موضع كذا أخذناه، ومصدره الثقف . وفى التنزيل العزيز : "واقتلوهم

حيث ثقفتموهم" .

والثقافة والثقاف العمل بالسيف قال :

وكأن لمع بروقها فى الجو أسياف المثاقف .

وفى الحديث : إذا ملك اثنا عشر من بنى عمرو بن كعب كان الثقف والثقافة إلى أن تقوم الساعة،

يعنى الخصام والجلاد .

(1) راجع الفيروز آبادي (مجد الدين يعقوب الشيرازي): القاموس المحيط، القاهرة: مطبعة بولاق، 1289 هـ .

- ابن منظور: لسان العرب، مادة ثقف القاهرة: دار المعارف، د.ت.

والثقاف حديدة تكون مع القواس والرماح يقوم بها الشئ المعوج . وقال أبو حنيفة : الثقاف خشبة قوية قدر الذراع فى طرفها خرق يتسع للقوس، وتدخل فيه على سحوبتها، ويغمز منها حيث يبتغى أن يغمز حتى تصير إلى ما يراد منها . ولا يفعل ذلك بالقسى ولا بالرماح إلا مدهونة مملولة أو مصهوبة على النار والعدد أثقفه، والجمع ثقف، والثقافة ما تسوى به الرماح ومنه قوله عمرو :

إذا عض الثقاف بها اشمأزت تشق قفا المثقف والجبينا

وتتقيفها : تسويتها وفى المثل : دردب لما عضه الثقاف .

قال : الثقافة خشبة تسوى بها الرماح، وفى حديث عائشة تصف أباهما رضى الله عنهما : " وأقام أوده بثقافة" والثقاف ما تقوم به الرماح : تريد أنه سوى عوج المسلمين .

وبقية المادة يدور على اسم قبيلة تقيف القيسية ولا علاقة لاسمها بالثقافة .

ويذهب البعض<sup>(1)</sup> إلى أنه ليس فى معانى لفظ ثقف ما يتفق مع المعنى الذى نريده نحن اليوم من كلمة ثقافة بل نحن لا نستعمل ثقف أو ثقف بل نقول تثقف يتثقف بمعنى اطلع اطلاعاً واسعاً فى شتى فروع المعرفة حتى أصبح رجلاً مثقفاً أو رجل ثقفاً إذا استعملنا اللفظ العربى الدقيق الذى ورد فى مادة "لسان العرب" وفى "تاج العروس" أيضاً بمعنى تسوية الرماح أى تهذيب عود من الخشب ليستعمل رمحاً . فاللفظ يستعمل اليوم فى معنى الاطلاع الواسع المطلق غير المحدد بتخصص ولا وجود لهذا المعنى فى المعانى القديمة للفظ الثقافة ولا ضير فى هذا فإن اللغات ينبغى أن تتطور وتطورها علامة حياتها، ولا يكون هذا التطور بابتكار ألفاظ جديدة أو بإدخال ألفاظ أجنبية كما هى فى صلب لغتنا بل يكون بإعطاء معان واستعمالات جديدة لألفاظ قديمة . ويكون بإدخال ألفاظ أجنبية فى اللغة بعد تطويعها للقالب العربى، وبدون ذلك لا يكون الأمر تطويراً بل إفساداً للغة .

ولا نستطيع أن نعرف متى دخل لفظ الثقافة فى الاستعمال عندنا فى المعنى الجديد ولكنه على أى حال من توفيقات ذلك الجيل الذى وضع أساس نهضتنا الفكرية من أوائل هذا القرن إلى آخر الخمسينات .

ويذهب البعض إلى أن هذا اللفظ Culture، ترجم إلى كلمة "ثقافة" برز مع "سلامة موسى" الذى يعد أول من أنشأ هذا اللفظ، عام 1927 م، حيث يقول "كنت أول من أنشأ لفظة الثقافة فى الأدب العربى الحديث، ولم أكن أنا الذى سكبها بنفسه فإنى انتحلتها - أى سرقتها - من ابن خلدون، وإذ وجدته يستعملها فى معنى شبيه بلفظة "كلتور" الشائعة فى الأدب الأوربى، والثقافة هى المعارف والعلوم والآداب والفنون يتعلمها الناس ويتثقفون بها، وقد تحتويها الكتب، ومع ذلك هى خاصة بالذهن، أما الحضارة فمادة محسوسة فى آلة تخرع وبناء ويقام ونظام حكم محسوس يمارس، ودين له شعائر ومناسك وعادات . ومؤسسات، فالحضارة مادية وأما الثقافة فذهنية .

(1) راجع: كافية رمضان وفيولا الببلاوي: ثقافة الطفل المجلد الأول، الكويت: كلية التربية بجامعة الكويت، 1984م.

وقد سار كل من جاء بعد "سلامة موسى" على أثره فى تعريف الثقافة، إذ أنه رغم استخدام كلمة "ثقافة" العربية، إلا أن المعانى والدلالات المقصودة من وراء اللفظ والتي يعرف بها، كل نفس معانى ودلالات مفهوم "Culture" وكأن هذا المفهوم الأجنبى قد نسخ كل المعانى العربية للثقافة أو حل محلها. وبالرغم من محاولات التعريف من قبل الباحثين والكتاب العرب إلا أن تعريفاتهم لم تخرج عن نفس التعريفات المتعددة لمفهوم Culture وهكذا فعلت المعاجم العربية المتخصصة والعامه.

ويحاول أن يؤصل لمفهوم الثقافة قائلاً "وبالرجوع إلى الدلالات الأصلية لمفهوم الثقافة" يمكن ترسم ملامحه وأبعاده وتباين مدى قربها أو بعدها عن المفهوم الأجنبى Culture أو المفهوم الشائع للفظ العربى فى استخدامه المعاصر "ثقافة من ثقف" أى حدق وفهم، وضبط ما يحويه وقام به أو ظفر به، وكذلك تعنى فطن ذكى ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، وتعنى تهذيب وتقويم وتسوية من بعد اعوجاج ومن خلال هذه الدلالات يمكن تحديد ماهية المفهوم وأبعاده ودلالته حيث الثقافة فى أصلها العربى تعنى مجموعة من الدلالات نجملها فيما يأتى :

1- إن مضمون مفهوم الثقافة ينبع من الذات الإنسانية، ولا يغرس فيها من خارج، فالكلمة تعنى تنقية الفطرة البشرية وتشذيبها وتقويم اعوجاجها، ثم دفعها لتوليد المعانى الجوانية الكامنة فيها، وإطلاق طاقاتها لتنشئ المعارف التى يحتاج إليها الإنسان.

2- إن مفهوم الثقافة فى اللغة العربية يعنى البحث والتنقيب والظفر بمعانى الحق والخير والعدل، وكل القيم التى تصلح الوجود الإنسانى وتهذبه وتقويم اعوجاجه. فهو مفهوم يفتح الباب أمام العقل البشرى لكل المعارف والعلوم النافعة الصالحة، ولا تدخل فيه تلك المعارف أو العلوم أو القيم التى تفسد وجود الإنسان ولا تتسق مع مقتضيات التهذيب والتسوية وتقويم الاعوجاج.

3- أنه يركز على ما يحتاج إليه الإنسان طبقاً لظروف بيئته ومجتمعه، وليس على مطلق أنواع المعارف والعلوم، وإنما - كما يقول ابن منظور- هو غلام لقن ثقف أى ذو فطنة وذكاء، فالمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه" وهذا يربط مفهوم الثقافة بالنمط المجتمعى الذى يعيش الإنسان فى ظله، وليس بأي مقياس آخر يقسم الثقافات قياساً على ثقافة معينة مثل مفهوم Culture القائم على الغرس والفرص المعيارية فى التعامل مع الثقافات الأخرى، فاللفظ العربى يعتبر الإنسان مثقفاً لما هو ثابت المعرفة بما يحتاج إليه فى زمانه وعصره ومجتمعه وبيئته. ولذلك يكون المثقف أشد ما يكون مرتبطاً بمجتمعه وقضاياها بغض النظر عن كم المعارف والمعلومات المكدسة فى ذهنه والتي قد تكون أفكاراً مينة أو ممتية... الخ.

4- أنها عملية متجددة بل لا تنتهى أبداً، فهى لا تعنى أن إنساناً أو مجتمعاً معيناً قد حصل من المعارف والعلوم والقيم ما يجعله على قمة السلم الثقافى أو أنه وصل إلى الغاية القصوى، وإنما دلالات التهذيب والتقويم تعنى التجدد الذاتى أى تكرار التهذيب ومراجعة الذات وتقويمها وإصلاح اعوجاجها.

5- أنه مفهوم لا يحمل فى ذاته أحكاماً قيمية تحدد نوعية الثقافة، هل هى متأخرة بربرية وحشية رجعية أم متقدمة عصرية نيرة... إلخ، ذلك أن منطلق مفهوم التهذيب يجعل من جميع الثقافات طبقاتاً لقيم مجتمعاتها وظروفها على الدرجة نفسها من القيمة الإنسانية.

6- أنه مفهوم غير مقيد أو مخصص، فهو عام للإنسان والجماعة والمجتمع، يشتمل على جميع أنواع الممارسات الإنسانية ومختلف درجاتها ويعطى دلالاته على أى مستوى تحليلى يستخدم فيه طالما تحقق مطلق التهذيب والتقويم<sup>(1)</sup>.

وإذا كانت هذه التعريفات المتعددة حسب التصنيفات المذكورة وقد عقبنا عليها واستخلصنا منها استخلاصات هامة، فإنه من المهم التنويه عن وجهة نظر مفكر عربى مسلم فى هذا المجال، وهو الأستاذ مالك بن نبي الذى حاول تعريف الثقافة وتفسيرها فى كتابه: "مشكلة الثقافة". وقدم رؤية فكرية جديرة بالدراسة والاهتمام والتحليل.

فهو يرى أنه إذا كانت النظرة السائدة عن الثقافة تقصر مشكلتها فى الأذهان على قضية الأفكار، فإن الثقافة لا تضم فى مفهومها الأفكار فحسب، وإنما تضم أشياء أعم من ذلك كثيراً تخص أسلوب الحياة فى مجتمع معين من ناحية، كما تخص السلوك الاجتماعى الذى يطبع تصرفات الفرد فى ذلك المجتمع من ناحية أخرى.

وبخصوص الأبعاد الاجتماعية للثقافة فإنه يرى أن الثقافة هى التعبير الحسى عن علاقة الفرد بهذا العالم، وعلى هذا فهى حياة المجتمع التى بدونها يصبح مجتمعاً ميتاً، وبذلك تبرز قيمة الثقافة فى المحيط الاجتماعى، ذلك أن الثقافة تتحدد بما تحركه من قوى فى الفرد وفى المجتمع، وهذا تحديد يجعل منهما شيئاً شبيهاً بحالة نفسية واجتماعية.

ويرى أنه لا يمكن لنا أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، والشعب الذى يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه، والثقافة بما تتضمنه من فكرة دينية انتظمت الملحمة الإنسانية فى جميع أدوارها - من لدن آدم - لا يسوغ أن تعتبر علماً يتعلمه الإنسان، بل هى محيط يحيط به، وإطار يتحرك داخله، فهو يغذى جنين الحضارة فى أحشائه، إنها الوسط الذى تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وهى الوسط الذى تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعاً للغاية العليا التى رسمها المجتمع لنفسه، بما ذلك الحداد، والفنان، والراعى والعالم والإمام، وهكذا يتركب التاريخ.

إن الثقافة هى تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة وعبقريات متقاربة، وتقاليد متكاملة، وأذواق متناسبة وعواطف متشابهة، وبعبارة جامعة، هى كل ما يعطى الحضارة مسحتها الخاصة، وهذا هو معنى الثقافة والتاريخ.

(1) راجع: نصر محمد عارف: الثقافة، الحضارة، المدينة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى.

أما على المستوى الأخلاقي الذى يسهم فى بناء الحضارة، فيرى أنه إذا كانت الثقافة هى الجسد الذى يعبره البعض إلى الرقى والتقدم، فإنها أيضاً كذلك الحاضر الذى يحفظ البعض الآخر من السقوط من أعلى الجسد إلى الهاوية.... وعلى هدى هذه القاعدة فإن الثقافة تشتمل فى معناها العام على إطار حياة واحدة يجمع بين راعى الغنم والعالم، بحيث توجد بينهما مقتضيات مشتركة، وهى تهتم فى معناها بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة، وعلى ذلك فإن الثقافة تتدخل فى شؤون الفرد، وفى بناء المجتمع، وتعالج مشكلة القيادة، كما تعالج مشكلة الجماهير، والثقافة هى بمثابة الدم فى جسم المجتمع، يغذى حضارته، ويحمل أفكار الصقوة، كما يحمل أفكار العامة، وكل هذه الأفكار تنسجم فى سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة، والاتجاهات الموحدة، والأنواق المتناسبة.

وعلى هذا فالثقافة سلوك حياتى فردى وجماعى، ويرى "مالك" أن التشابه فى السلوك من أخص الأمور وأهمها فى تحديد ثقافة مجتمع معين، وهو يحدد أسلوب حياة ذلك المجتمع، كما يحدد سلوك أفراد ومدى ما بينهم من تبادل، ويخلص إلى تعريف للثقافة يحدد مفهومها : "المحيط الذى يعكس حضارة معينة، والذى يتحرك فى نطاقه الإنسان المتحضر"، وعلى هذا تغدو الثقافة نمطاً وجودياً، يعبر عنه من خلال نظام أو بنية خاصة تشمل تمثلاته الفكرية ومعتقداته وممارساته الأخلاقية وعلاقاته الاجتماعية ووسائل معاشه. كما يعكس هذا النمط علاقة الجماعة الخاصة بتراثها من الفنون والآداب والخبرات والتقاليد، ويدل على خصوصيات الهوية المجتمعية كما تظهر فى السلوك الفردى والجماعى، بما هو ممارسة ثقافية جامعة لخصائص التجربة التاريخية والمحيط الطبيعى واللغة والشعائر والأعراف، وبالتالي تصبح الثقافة - كما يقول مالك "نظرية فى السلوك أكثر من أن تكون نظرية فى المعرفة" بمعنى أنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التى يتلقاها الفرد منذ ولادته كإرث أولى فى الوسط الذى ولد فيه، والثقافة على هذا هى المحيط الذى يشكل فيه الفرد طباعة وشخصيته»

وهذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أى مقومات الإنسان، ومقومات المجتمع، مع الأخذ فى الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعاً فى كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التى تجريها الشرارة الروحية عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات.

وفى هذا الإطار ينتقد من لا يرون من الثقافة إلا المظهر التافه، ويتخذونها أداة للارتزاق بعيداً عن تفعيلها فى الواقع الاجتماعى، ويقول : إننا كنا نعرف مرضاً واحداً يمكن علاجه، هو الجهل والأمية ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضاً جديداً مستعصياً هو "التعالم" وإن شئت فقل : الحرفية فى التعلم والصعوبة كل الصعوبة فى مداواته، وهكذا أتيج لجيلنا أن يشهد ظهور نموذجين من الأفراد فى مجتمعنا: حامل المرفقات ذو الأطمار البالية، وحامل اللافتات العلمية، وإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوى المريض الأول، فإن مداواتنا للمريض الثانى لا سبيل إليها، لأن عقل هذا المريض لم ينتجه العلم ليصيره ضميراً فعلاً، بل يجعله آلة للعيش، وسلاماً يصعد منه للبرلمان، وهكذا يصبح العلم مسخاً وعملة زائفة،

وهذا النوع من الجهل أوهى وأمر من الجهل المطلق، لأنه جهل متعلق بالحروف الأبجدية، وحامل هذا النوع لا يقوم الأشياء بمعانيها، ولا يفهم الكلمات بمراميتها، ولا بد من إزالة هذا المريض ليصفو الجو للطالب العاقل الجاد، وعليه فإن مشكلة الثقافة لا تخص طبقة دون أخرى، بل تخص مجتمعنا كله، بما فيه المتعلم والصبى الذى لم يبلغ مرحلة التعلم، إنها تشمل المجتمع كله، من أعلاه إلى أسفله، إن بقى علو فى مجتمع فقد حاسة العلو، فأصبحت هذه الحاسة عنده أفقية، راقدة.

وخلاصة هذا كله أن "مالك" يبين معنى الثقافة باعتبارها مناخاً يمتص الفرد تلقائياً عناصره وأفكاره، فيلقاها لا كمعاني ومفاهيم مجردة ولكن كصور مألوفة يستأنسها منذ عهده بالحياة، ثم يبين كيف تذوب هذه العناصر فى كيان المجتمع لتطبع أسلوب حياته، وفى كيان الفرد لتطبع سلوكه مع تفاعل مستمر بين هذا الأسلوب وهذا السلوك فى صورة التزام مزدوج بين الفرد لتطبع سلوكه مع تفاعل مستمر بين هذا الأسلوب وهذا السلوك فى صورة التزام مزدوج بين الفرد والمجتمع، بحيث لا يسمح هذا الذاك بأى نشوز فى السلوك ولا ذاك لهذا بأى انحراف فى الأسلوب، إذ يتدخل فى الحالة الأولى ما يسمى بالضغط الاجتماعى، وفى الثانية كل مواقف الفرد التى تعبر عن استنكاره، وهذا يعكس اتجاهاً أصيلاً لدى العلماء العرب فى تأصيل معنى الثقافة ومفهومها<sup>(1)</sup>.

#### ثانياً : مفهومها لدى المفكرين :

اختلف المربون والمفكرون فى تعريفهم للثقافة فعرّفها كل واحد منهم من الزاوية التى ينظر إليها أو من منطلق اختصاصه، منها الأنثروبولوجيا، والأثنولوجيا، وعلم الاجتماع وعلم النفس، والاقتصاد والسياسة والجغرافية.

ويمكننا تصنيف تعريفات الثقافة إلى سبعة أقسام أساسية<sup>(2)</sup> :

- أ- تعريفات تاريخية.
- ب- تعريفات تطويرية.
- ج- تعريفات بنوية.
- د- تعريفات وصفية.
- هـ- تعريفات شمولية.
- و- تعريفات سيكولوجية.
- ز- تعريفات معيارية.

(1) راجع فى هذا المجال مؤلفات الأستاذ مالك بن نبي، وخاصة كتاب: مشكلة الثقافة.

(2) يراعى فى هذا التصنيف: سامية حسن الساعاتي: الثقافة والشخصية- بحث فى علم الاجتماع الثقافى، ط2، بيروت: دار النهضة العربية، 1983 ن ص ص 112-25.